مـقدمـة

قبل خمسة آلاف عام من الميلاد كان القوم هناك.. فوق جبالٍ ، يتابعون بعينٍ قلقة وفؤادٍ مضطرب ما يحدث عند السفح :
الدلتا التي كانت بحراً .. صارت تستقبل مياه النيل النابعة من كهوف الجنوب . ثم يغيض الماء ، فترقى ربى سمراء صارت خضراء. فسحر اللون القوم، فرموا بقوسهم وسهمهم وألقوا بأنفسهم بين أحضان الوادي . وهناك.. فوق الربى رأوا حركة تدب ، فإرتدوا.. فتقدم كبارُهم ، هدأوا روعَهم، وغمغموا :
هكذا كان البدء !
وهكذا كانت الطبيعة وظواهرها هي المحرك الأول والدافع الأساسي للفكر المصري لإستعادة عملية الخلق ، وترتيب عناصر بدايتها . لقد نظر المصري إلى أرض وادي النيل فرأى مياه الفيضان تغمرُها ثم تنسحب مخلفة وراءَها تلالاً طينية ، ثم لحظ أن الحياة تدب فوق هذه التلال :
كائناتٌ حية تتحرك ، ثم رأى عشباً أخضر حياً يخرج من ثنايات هذه الأرض الخصبة .
وسجلت ذاكرةُ الإنسان هذه الظاهرة ، ظاهرة الحياة التي خرجت من بين طيات عدمٍ مظلم ، فآمن بأن وراءَ هذا الخلق خالقاً ، صاحبَ قدرة خاصة ، كما تصور أن الكونَ ومظاهره الطبيعية أربابٌ شتى ، منها الخيرُ ومنها ما هو غير ذلك.
ولما كانت البلاد – حينذاك – متناثرةً ؛ فقد نشأت في كلٍ منها رؤية خاصة تتناول فلسفة الخلق .. والخالق ، تعطيه إسماً وسمة ، قد يختلفا هنا وهناك، ولكنهما ظلا علماً على خالقٍ واحد أبدع الكونَ وما فيه.
إن تناول الدين المصري [القديم] من المسائل الشائكة العسيرة، ويرجع ذلك لعدة أسباب ، أهمها :
ـ حداثةُ علم المصريات نفسه ، إذ لم يبدأ حلُ رموز اللغة المصرية إلا في القرن التاسع عشر.

- الدمارُ الذي لا مثيل له في تاريخ الإنسانية ، الذي لحق بالمنشآت الحضارية المصرية من معابد وأهرامات ومقابر وأوراق البردي ، مما تسبب في فقدان مصادر حيوية في جميع المجالات.
- الافتراءُ والتشنيع بقلب الحقائق بغرض تشويه الحضارة المصرية.
- امتدادُ الفترة التاريخية – موضوع البحث – لأكثر من خمسةِ آلاف عامٍ [تقع كلها قبل الميلاد] ، فلا يكون من المنطق أن نتعامل مع الدين المصري [القديم] على أنه دين واحد لم تجر عليه تغييرات ، ولم تدخل عليه مذاهب تأويل، وتفاسير وشروحات، ووجهات نظر مختلفة ، وهو ما حدث لكل الأديان الأخرى الأقصر عمراً والأحدث وجوداً.
- لم يترك المصريون كتاباً مقدساً يشمل ما يمكن تعريفه بالدين المصري.
- غموضُ بعض الأفكار، والتي يفترض البعضُ أن الكهنة المصريين قد تعمدوا إخفاء حقيقتها ، كما تعمدوا أيضاً تقديم أفكار بسيطة للعامة ، واحتفظوا لأنفسهم بالأفكار الأصلية والحقيقية.
- اللبسُ الذي يقع فيه الكثيرون الذين يتصدون للبحث في الدين المصري [القديم] ، ومرجعه أن اللغة المصرية عرفت الإله بلفظ : "نتر" ، وهو لقبٌ مقدس وضع أمام الإله والأرباب وآخرين.

ولا يوجد لفظٌ مطابق لكلمة "نتر" المصرية ، أما ترجمته التي تعني "الله" فمسألة محل جدلٍ شديد ، وفي هذا يقول (إريك هورنونج) : " الإستنتاج الذي لا مفر منه حقاً هو " أنه لا تحليل للكلمة " ولا " المعنى الأصلي " لكلمة نتر يمكن تأكيده، لأن هذه المحاولة لاتمدنا بأي نظرة إستبصار في طبيعة المفهوم المصري للإله، فيجب أن ننحي هذه المسألة جانباً ونركز على استعمال الكلمة".

وعلى الرغم من كل ما تقدم فقد بقيت نصوص [مصرية] دينية عديدة ، منها ما هو مسجلٌ على جدران المعابد والمقابر، ومنها ما هو مدونٌ على أوراق البردي، كما أن هناك أيضاً تعاليم كتبها حكماءٌ وأدباء.

من كل ذلك نستطيع أن نستخلص بعضاً من مبادئ ومظاهر وطقوس وآداب وعقائد المصري [القديم].

وكان من أهم مظاهر الدين المصري هي خصوصيته ، فالآرباب التي قُدست في ربوع مصر كانت آرباباً مصرية ذات أسماء مصرية ، ولم يذكر لنا التاريخ أن المصريين قد اعتنقوا ديناً وافداً إلى بلادهم من خارجها.
ورغم اعتزاز المصريين بدينهم ، إلا أنهم لم يبشروا به خارج أراضيهم قط ، فلم يعرف التاريخ أن مصر – مهما بلغت من قوةٍ ونفوذ دولي – قد أكرهت شعوباً على اتباع عقيدة مصرية أو الإيمان بإله مصري.
وقد أبدى المصريون دوماً تسامحاً دينياً فيما بينهم في داخل مصر نفسها ، كما أبدوا ذلك التسامح مع آلهة البلدان "المقهورة" .
وقد جاء في سياق نص أدبي مصري [قديم] أن أحد الأحباش عمل على إذلال الملك المصرى [نفسه] وازدرائه والسخرية منه في العلن ، فقام بجلده أمام الشعب الحبشي ، فلما سقط هذا اللعين بعد ذلك في يد الملك المصري ، وجاءت أم الحبشي ترجو الملك ألا يقتل إبنها ؛ إذ بالفرعون يعفو عنه ، وكان كل ما عاقب به الحبشي هو حرمانه من دخول أرض مصر.
وبالطبع لم يمنع تسامحُ أبناء الحضارة المصرية وسلوكُهم الرفيع من قيام الملوك بالدفاع عن حدود البلاد ، فخاضوا من أجل ذلك حروباً ضروساً ، وقد وصل الأمر بالملك (رمسيس الثالث) أن قطع أوصال أعدائه ، الذين حاولوا إحتلال مصر.
وقد كان الدينُ المصري هو الأساس الذي شُيد عليه بنيانُ المجتمع المصري، فكان الإيمان بحياةٍ أبدية [بعد الموت] يرتبطُ بالإيمان بمبدأ الحساب بما يتبعه من ثوابٍ وعقاب ، هو أيضاً إيمانٌ بمبدأ العدل الذي يمثله ميزانُ "ماعت"، أي الحق والعدل والنظام ، مبادئ ثلاثة عظيمة جمعها المصري في هذه الكلمة الواحدة : "ماعت".
الماعت نظامُ حقٍ عادل شمل الحياة كلها ، الأولى والثانية ، ولم يقتصر فقط على العالم الأخر، فميزان الماعت كان يزن أعمالَ الناس في الدنيا ، ومن خلال ذلك يتحدد مصيرُ الإنسان في الحياة الأبدية . فكان على المصري الساعي إلى نعيم الأبدية أن يلتزم بقوانين الماعت في الحياة الدنيا، كما جاء في النص المصري [القديم] الذي يحثُ المرءَ على أن يكون : " رقيق الطباع في معاملته للناس، مستيقم السلوك، قويم الأخلاق ، يحب الماعت ويكره الشر ".

وكانت قوانين الماعت ملزمة للجميع ، من المواطنين البسطاء الذين لا يملكون مالاً ولا نفوذاً، إلى رأس السلطة في الدولة المصرية، فكان على أعتى ملوك مصر أن يتبرأ أمام ميزان الماعت في محكمة الآخرة من آثامٍ لم يرتكبها من كذبٍ ، أو سرقة وقتل وزنا ، أو إلحاق الأذى بأرملةٍ لا أحد لها، أو رضيع ضعيف ، أو حتى تلويث مياه النيل ، ويتم ذلك في حضور مندوبين عن جميع أرجاء مصر.

وكان قانون الماعت هو أيضاً القانون الذي يحكمُ به قضاةُ مصر، الذين كانوا لا يلتزمون فقط بنصوص القانون ؛ بل كان عليهم أيضاً حمايةُ الضعفاء من ظلم الظالمين.

وقد احتفظت لنا البرديات وجدرانُ المقابر والأهرام والتوابيت بنصوصٍ دينية رفيعة المستوى. ولم تكن النصوص الأدبية [الدنيوية] تقل بحالٍ من الأحوال عن النصوص الدينية ، فقد كانت الأعمالُ الأدبية أيضاً وعاءً فكرياً شمل أسس الأخلاق العامة.

وقد : " بُني معظم الأدب المصري سواءً كان مقدساً أو دنيوياً على الأخلاق وتعليم الأخلاق " ، كما جاء في معجم الحضارة المصرية القديمة.

أما (كلير لالويت) فتقول : " الأدب المصري هو الأكثر عراقة بين ما عرفته البشرية من آدابٍ ، وهو من أرفعها شأناً وأكثرها تنوعاً ".

كما تقول (لالويت) أيضاً : " ومن الخصال الهامة للإنسان المصري القديم هو انشغاله الدائم بالحقيقة والعدل، وقد ألّه هاتين الصفتين الكاملتين وجسدهما في الربة "ماعت" ، التي لها وحدها في مجمع الآلهة المصريين صفةُ القداسة المجردة ، والتي كان يُنظر إليها كضرورةٍ لنظام العالم وتوازنه ".

ولم يؤله المصريون "ماعت" فقط ؛ بل وصل بهم الأمر أن وضعوا مؤلفي نصوص الحكمة والأخلاق في صفوف الأرباب.

ومن أبرز أدباء مصر في هذا المجال كان الحكيم (بتاح حتب) ، وزير الأسرة الخامسة [٢٤٠٠ قبل الميلاد]، وكان (بتاح حتب) قد وضع مؤلفاً في الحكمة بناءً على طلب من الملك نفسه. ومن أقوال (بتاح حتب) : " الحقيقة شيء جيد وقيمتها دائمة لا تزول ، إنها أشبه بالصراط المستقيم أمام الإنسان الذي يعرف

قوة الحقيقة في ديمومتها، والإنسان العادل يستطيع أن يقول : هذه هي التركة التي أورثني إياها أبي ".
كما يقول (بتاح حتب) أيضاً : " لا تزرع الخوف في نفوس الناس، فتلك إرادة الله. إذا لجأ أحدهم إلى العنف فإن الله ينزع الخبز من فمه. وإذا فعل ذلك من أجل الثراء سيقول الله : لأحرمنك من هذه الثروة.. أعمل على أن يعيش الناس في سلام، وسوف يعطونك عن طيب خاطر ".
هكذا نرى حدوداً أخلاقية حكمت علاقات الناس في المجتمع المصري، وبلورها الأدبُ المصري [القديم]، وكان أعظم هذه المباديء الأخلاقية مبدأ السلام، الذي يتكرر أيضاً في النص التالي : " لا تنضم إلى الفاسقين ولا تخالط السفلة ، لا تقدم شيئاً محرماً ولا تستخدم العنفَ ضد أي إنسان ".
كان إذن صنع السلام على الأرض مبدأً هاماً، يكافأ من يعمل عليه ويلتزم به أن يعيش حياةً سعيدة أبدية في "حقول السلام" في الدار الآخرة.
وبعد..
فإن هذا الكتاب لا يُعتبر بحثاً في الدين المصري [القديم]، كما أنني لا أزعم أني أقدمُ من خلاله رؤيةً جديدة لهذه العقيدة ، بل حاولتُ أن أمسح شيئاً من بقعٍ سوداء حاول مغرضون أن يلطخوا بها وجهَ مصر.
لقد لفق الحاقدون – من زمن بعيد – أكاذيبَ تلقفها مغرضون – على مر التاريخ – و رددها جاهلون ، بل وظلوا يرددونها حتى اليوم.
ومن هذه الأكاذيب المفتراة تلك التهمة التي ألصقت برأس الدولة المصرية : الملك نفسه.. فكان قاسياً جباراً ، طغى وكفر وبغى وأفسد في الأرض، حتى صار لفظ "فرعون" يحمل كل هذه المعاني ، فهو الذي ذبح أطفالاً أبرياء ، وحرص على الحفاظ على شعب كامل في الأسر ليذيقهم المر والهوان . [وللرد على هذه الفرية أفردنا فصلاً داخل هذا الكتاب] . وكان لابد أن يعقب ذلك وصمُ حضارةٍ كاملة بالكفر، وصار ما تبقى من آثارها أصناماً، ينادي البعضُ من حينٍ لآخر بوجوب إزالتها وتدميرها.
ومن جانبٍ آخر يزعم آخرون أن هناك من هبطَ من السماء ليشيدَ لنا هذه المنشآت الضخمة ، وهم يتناسون – بالطبع – أن هذه الآثار الموجودة الآن – والمندثر منها – قد بُنيت على مر عصورٍ تاريخية مختلفة ، مما كان يلزم أن

يبقى هؤلاء – الواقعون من السماء – آلاف السنين على أرض مصر، وأن يتواجدوا في كل بقعةٍ منها ، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.
فإذا فرغ هؤلاء من ترديد أوهامهم ، ظهر غيرهم زاعماً أن هذه الحضارة ليست سوى آثار لحضارة أخرى – غير مصرية – اندثرت وابتلعها البحر.
وبين البحر والسماء مازال هناك من يردد هذه المهاترات وغيرها ، أحياناً في شكلٍ علمي وأحياناً أخرى في شكل روائي .. وهكذا .. فالمهم هو تفريغ هذه الحضارة العظيمة من مضمونها ، وقد تصل السذاجة بالبعض أن يردد بأن حضارة مصر ليست سوى حضارة موت وأموات.
وهي على النقيض من ذلك تماماً، فقد كان المصري – المحبُ للحياة – أول من آمن بالخلود ، خلود الروح ، وآمن بالبعث بعد الموت، أي الحياة الأخرى ، فهو إذن ليس موتاً ، بل حياةً تستمر في عالمٍ آخر، حياة متصلة دائمة ، ولهذا السبب لم تعرف اللغةُ المصرية للحياة والأبدية سوى كلمة واحدة هي : "عنخ" ، أي الحياة.
إن مصر أرضٌ مباركة ، دعا لها (آدم) و(نوح)، وجاءها (إبراهيم) أبو الأنبياء، وخرج منها (إسماعيل) جد العرب ، وتربى فيها (يوسف) الصديق ، وفيها مات، وولد فيها (موسى) ، وإليها لجأ (عيسى) إبن (مريم)، ومنها صاهر (محمد) خاتم الأنبياء المرسلين، عليهم جميعاً السلام.
إن مصر العظيمة لم تكن أرضَ كفرٍ وأصنام ، كما لم يكن ملوكُ مصر جبابرةً طغاة ، أما شعبُها السمح فلم ينفرد – دوناً عن شعوب الأرض كافة – بعراقته تاريخياً وعلمياً فحسب، بل تجسدت عراقته الفريدة أيضاً في الدين والأخلاق.
وإلى المصريين ينسب (جيمس هنري برستيد) "نحت" لفظ "الأخلاق" من مفهوم "الخلق"، فكانوا أولَ من ربط بين الأخلاق والخالق، وتبعهم بعد ذلك باقي الشعوب.
ولتجنب مشقة الإطلاع على عشراتٍ من شهادات علماء العالم– قدماء ومحدثين – عن مصر ومكانتها وفضلها، فإننا نكتفي هنا ببضع كلمات قالها عالمان، أحدهما ينتمي إلى العصر الحديث وهو العالم الفرنسي (س. ف. ديبوي)، الذي يقول : " إن مصر تشبه شجرةً قديمة قدم العالم، وقد رفعت رأسَها الشامخ من عماء الأبدية، وأثرت كلَ أجزاء العالم بمنتجاتها، وضربت بجذورها في عمق

أجيال البشر، متخذةً صوراً مختلفة ومظاهر شتى، لكنه جوهرٌ دائم يصعد مرتقياً إلينا متمثلاً في دينها وفضيلتها وعلمها".

أما (هرودوت) فيقول عن المصريين بعد زيارته لبلادهم في القرن الخامس قبل الميلاد :

" وهم في العلم يتفوقون كثيراً على كل الشعوب التي خبرتها ".

" وهم [المصريون] يزيدون كثيراً عن سائر الناس في التقوى ".

" والمصريون أيضاً هم أول من راعى السُنّة التي تحرم مجامعة النساء في المعابد، كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال ".

" ولقد اكتشف المصريون من علامات الغيب أكثر من الشعوب قاطبة".

أما عن مصر نفسها فيقول (هرودوت) :

" والآن سأبدأ الكلام عن مصر في إسهاب، لأنها – دون غيرها من بلاد العالم أجمع – تحوي عجائب أكثر وآثاراً تجل عن الوصف ".

" لقد جاءت أسماء الآلهة كلها تقريباً من مصر إلى بلاد اليونان".

لم تكن أسماء الآلهة فقط هي التي انتقلت من مصر إلى اليونان، وبعدهم الرومان، وإنما العناصر الأساسية في مجمل الفكر الديني والفلسفي والعلمي لهاتين الحضارتين كانت عناصر مصرية بحتة أصيلة، وهذا – وغيره – ما سنراه تفصيلاً بين صفحات هذا الكتاب.

محمد أبو رحمة

obeikandl.com